(من كتاب الحجِّ وروح العبادة فيه)

(١٢)

الحجُّ وليلة مزدلفة، وذكر الله عند المشعر الحرام

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

من ليالي الحجِّ المباركة (ليلةُ مزدلفة) وتُسمى (ليلةُ جمع، والمشعر الحرام) وهي ليلةٌ شريفة أتت بين يومين عظيمين، فقبلها يومُ عرفة، وصبيحتها يوم النحر، نوَّه اللهُ عن منزلتها بذكرها في كتابه في آياتٍ تُتلى إلى يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾[1].

وهذه الآيات لها وقعها وأثرها على النفس، وأظهر ما تكون إذا تلاها الحُجّاج أو سمعوها في ذلك الموطن، حين تُتلى عليهم في صلاة المغرب أو العشاء أو الفجر أو حتى خارج الصلاة،

(١) [سورة البقرة: الآيات ١٩٨-١٩٩].

فإنَّهم يتذكّرون معها مِنّة الله عليهم، وقد أفاضوا من عرفات، محتسبين على ربهم أنَّهم قد غُفرت لهم ذنوبهم، وأُقِليت عثراتهم يوم عرفة، واستُجِيبت دعواتهم، فهم من أسعد العِباد في هذه الليلة وأولاهم بالفرح، فقد منَّ عليهم بالوقوف في عرفة، وشرَّفهم بهذا المبيت في منسك عظيم من مناسك الحجَّ، وفي مكان نامَ فيه الأنبياء والصالحون نومًا مُغايرًا لكل نَومٍ طوالَ ليالي العام، بل طوال ليالي العمر، فمغفرة الذنوب ليست بالأمر الهيِّن، والتجاوز عن الخطيئات من أكبر المِنَنِ التي بَشَّرَ بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهلَ عرفات، ولذا كان أحرى العباد بالإكثار من شكر ربهم هذه الليلة، هم أولئك الذين منَّ تعالى عليهم بهذه المنّة، وخصَّهم بذاك الوقوف، وهذا المبيت، فيا لله كم سيبيت هذه الليلة خلقٌ كيوم ولدتهم أمّهاتهم أنقياء من الذنوب، طاهرين من الخطايا، قد مُحيت كلُّ خطيئة سُطِّرت في صحائفهم، فاهنأ أيُّها الحاجّ بخير ليلة تمرُّ عليك مذ ولدتك أمُّك، واسعد بخير ليلة في ماضي لياليك.

وفي هذه الليلة وما بعدها يُكثر الحاجُّ من الاستغفار، وهذا يدلُّ على أهميته وفضله، وشدة الحاجة إليه، فانظر كيف يأمرُ

اللهُ بـه الحُجّاجَ وهم قـد أدّوا للتوِّ ركن الحـجّ الأكبر، ووقفوا في المشـعر الحرام ذاكرين ربهم، قـال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1].

وفي الأمـر بالاسـتغفار في مزدلفـة بعـد أعظم عبـادات الحجِّ الإشارة إلى أنَّ العبد مهما تقرّب إلى ربه بعبادات، فيبقى التقصير ملازمًا له، وحاجته ماسَّة للتجاوز عمّا فيها من خلل، يقول الشيخ ابن سـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وهكذا ينبغي للعبـد كلما فرغ من عبادة أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمـل العبادة، ومنَّ بها على ربه، وجعلت له محلاًّ ومنزلةً رفيعة، فهـذا حقيـقٌ بالمقـت وردِّ الفعل، كمـا أنّ الأول حقيـقٌ بالقبول والتوفيق لأعمال أُخر)**[2].

(١) [سورة البقرة: الآيات ١٩٨-١٩٩].

(٢) [تفسير ابن سعدي: آية ١٩٩ سورة البقرة]

والسُـنّةُ أن تبيت -أيُّها الحاجُّ- مُبكّـرًا، وتُصلى صلاة الفجر في أوَّل وقتها ليتسـنَّى لك كثرة الذكر بعدها، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاَّها في أوَّل وقتها ثمَّ بقي ذاكرًا مخبتًا خاضعًا خاشـعا لربه من بعـد صلاة الفجر حتى قاربت الشـمس على الطلـوع، ثمَّ ارتحل إلى مِنًى بعد الإسـفار جِـدًّا، فينبغي لمن أراد اتِّباع السُـنّة والفوز بالأجـر أن يبقـى في مزدلفة هـذا الوقت، يذكر ربه فيـه ويحمده، ويُثني عليه ويدعوه، فإنّ هذا الوقت من مظانِّ إجابة الدعاء.

اُخلُ بنفسـك، واذكُـرْ ربَّك كثيرًا، واسـأله من خيـري الدنيا والآخـرة، وأكثِـرْ من الاسـتغفار، فعلها سـاعة الرحمـة والقبول وتحقيـق المطالـب، والله يُحِبُّ مـن عبده ذكره في هـذا المكان، ولذا نصَّ عليه في كتابه، فعظِّمْ هذا الموقف، واغتنم هذه الفرصة، وتعبّد لله بالطاعة فيه، فيوشك أن تغادره وتتركه.

تأنَّ ولا تسـتعجل في الخروج إلا إذا كان معك نساء وضعفة، فما هي إلا سـاعةٌ من الزمن أو أقل، ثمّ تُشـرق شمس يوم النحر، وربمـا لا تعود إلى هذا المكان في مثل هذا الوقت مرَّةً أخرى فلِمَ العجلة بلا عذرٍ؟!